مجمع الفقه الإسلامي بجدة
منتدى الفكر الإسلامي

التجديد في الفكر الإسلامي
رؤية معاصرة

محاضرة

الدكتـــور محمد سليم العوا
الأمين العام للإتحاد العالمي لعلماء المسلمين

١ محرم ١٤٢٧هـ الموافق ٣١ يناير ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تثور الحاجة إلى التجديد إلا في مواجهة التحديات. فالذين لا يشعرون بالتحدي، ويمارسون الاطمئنان اليومي إلى ما هم عليه في الثقافة والفكر لا يحتاجون إلى البحث في ضرورة التجديد الفكري أو إعادة النظر فيما استقر عليه وضعهم الثقافي.

ولا تثور الحاجة إلى التجديد، عند وقوع التحدي، إلا بالنسبة لمن لديهم أصل ثابت يعتزون به، ومرجع صادق يجعلونه معيار الصواب والخطأ والمقبول والمرفوض مما يُعرض عليهم، أو يَعرِضُ لهم، من أفكار تتجدد بتجدد الزمان، وبتجدد الخصوم، أي بالتحديات الحادثة.

والمسلمون لهم نصيب من هذين الأمرين عظيم. وإن شئت قلت: لهم منهما النصيب الأعظم بين الناس جميعاً.

فهم في تحد دائم متواصل منذ نزل القرآن، في مكة المكرمة، على محمد صلى الله عليه وآله وسلم. قيل: ساحر؛

وقيل: شاعر نتربص به ريب المنون؛

وقيل: كذاب أشر؛

وقيل: إنما يعلمه بشر؛

وقيل: تقوّله من عند نفسه؛

وقيل: كاهن؛

وقيل: ضالُ غويٌ؛

وقيل: مجنون.

وردَّ القرآن الكريم على هذه التحديات التي ووجه بها الرسول صلى الله عليه وسلَّم نفسه، فقال لهم:

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٥].

وقال: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور:٢٩]

وقال: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ

لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ [الحاقة: ٣٨-٥٢].

وقال القرآن الكريم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٠-٣٤].

وقال: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ [القمر: ٢٦]

وقال القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٥].

وقال القرآن الكريم: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم: ١-١٠].

والمسلمون يتعلمون من هذا التصدي القرآني الكريم، لما ووجه به رسول الله ﷺ من مزاعم المنكرين نبوته والمكذبين برسالته، أن دينهم يقتضيهم أن يواجهوا كل تحدٍ بالرد القاطع على حجة أصحابه. وأن لا يستنيموا لضيم يراد بهم، مهما تكن أحوالهم قوة أو ضعفاً وكثرة أو قلة، فإن آيات الرد على التحديات التي ذكرتها كلها مكية، نزلت ولم تكن للمسلمين دولة، ولا قامت لهم قائمة جماعة مرهوبة الجانب، بل كان أكثرهم من المستضعفين الذين هم ــ عادة ــ أول من يتبع الأنبياء ويؤمن بهم؛ قال هرقل لأبي سفيان في الحديث المشهور الذي رواه عبد الله بن عباس عن أبي سفيان [البخاري: كتاب بدء الوحي، الحديث رقم ٧]: «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟» فقال أبو سفيان: «بل ضعفاؤهم». وعقب على ذلك هرقل في خاتمة حواره مع أبي سفيان بأن هؤلاء «هم أتباع الرسل».

والمسلمون مأمورون منذ نزل القرآن الكريم على نبيهم ﷺ بأن يتخذوه مرجعاً وإماماً لا يحيدون عنه ولا يردون ولا يصدرون إلا بعد الرجوع إليه. فنبيهم ﷺ يخاطب بقول القرآن

الكريم ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣-٤٤]. والقرآن يقول للمؤمنين: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ [الإسراء: ٩] ويقول لهم: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء: ٨٩] (ومثلها في الكهف ٥٤، والروم ٣٠، والزمر ٣٩ مع اختلاف التعقيب في كل آية).

والقرآن يأمر الرسول ﷺ أن يحكم بين الناس به ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

والفرق بين المنافقين والمؤمنين أن الأولين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾ [النساء: ٦١].

والمؤمنون مأمورون برد المتنازع فيه إلى الله (أي إلى القرآن الكريم) وإلى الرسول ﷺ (أي إلى سنته الصحيحة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى): ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩]. وهم لا يؤمنون حتى يحكموا محمداً ﷺ فيما شجر بينهم: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: ٦٥]. و: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]؛ في مقابلة الذين ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ النور: ٤٨-٥٠].

والتحديات التي بدأت بتكذيب رسول الله ﷺ مستمرة تواجه المسلمين بمختلف الصور وشتى الأساليب إلى يوم الناس هذا، والغالب على ظن كل عاقل أنها سوف تستمر إلى يوم القيامة لأن القرآن الكريم يقول لنا عن أعداء ديننا إنهم ﴿ ...وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا... ﴾ [البقرة: ٢١٧]. ويبين لنا أن السبيل إلى ترك الدين هو طاعة هؤلاء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

والقرآن هو المرجع النهائي ــ بل الأول والأخير ــ لمواجهة هذه التحديات، ولبث روح القدرة على مقابلتها بمثلها، ولجمع الأمة حول حقائق دينها، لا تزيلها عنها أباطيل الخصوم ولا تجتالها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من زخرف القول، ﴿ ... وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

والثبات على هذا القرآن، والاستمساك به، هو سبيل الحياة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وما أوجبه الله، تبارك اسمه، على رسوله، واجب على كل مسلم: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩]. وهذا الصبر لا يكون إلا بعد أداء الواجب واستفراغ الجهد وبذل غاية الطاقة وإلا كانت الأمة، أو المؤهلون لذلك منها، مقصرين مسؤولين أمام الله عز وجل عن تقصيرهم.

ولذلك كان الحديث في التجديد ضرورة متكررة. ولازماً من لوازم كل عصر، إذ لكل عصر تحدياته التي تستحق منا ــ معشر المسلمين ــ استجابة مناسبة، ولكل عصر لغته التي إحسانها من إحسان الحديث بلسان القوم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... ﴾ [إبراهيم: ٤].

* * * * *

والحديث عن التجديد ليس بدعاً في ثقافتنا الإسلامية، ولا هو اختراع أحوجنا إليه ضعفنا المادي العسكري والاقتصادي، أو ضعفنا المعنوي، أمام الغرب المسيطر المتكبر أو طليعته المهيمنة اليوم على معظم بلاد الدنيا. بل حديث التجديد أصيل في ثقافتنا، قديم قدم عهد النبوة نفسه.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» [سنن أبي داود رقم ٤٢٩١؛ والأحاديث الصحيحة للألباني رقم ٥٩٩ ج٢ ص ١٥٠ من طبعة المكتب الإسلامي الرابعة ١٩٨٥].

والتجديد في أصح أقوال العلماء معناه إحياء من اندرس من شأن الدين، وتوجيه الناس إلى الاستمساك به. وهو لا ينحصر في واحد في كل قرن، بل المجتهدون يتعددون. وهو لا يقتصر على الشأن الديني، اصطلاحاً، الذي يعني العقائد والشرائع والشعائر بل يكون فيه وفي غيره من العلوم المختلفة لأن القصد هو ألا يتوقف الإبداع البشري عن العمل بالجمود على آراء السابقين وترديدها أو عند حججهم بتكرارها.

وهذا هو الأمر الذي يتفق مع طبيعة هذا الدين العظيم الذي ينفرد عن كل عقيدة وكل فلسفة وكل مذهب فكري بأن يجعل الاجتهاد واجباً على العلماء لا جائزاً لهم، ويجعل للمجتهد إذا أخطأ أجراً واحداً وللمجتهد المصيب أجرين «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ له أجر واحد» [رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن العاص، ورواه مسلم وغيره عن أبي هريرة، وهو عنه من معلقات البخاري، محمد أحمد بدوي، كفاية المسلم، جـ ٤ ص ٤٩٦ الحديث رقم ٨١/١ و ٨٢/٢؛ وصحيح الجامع الصغير للألباني برقم ٤٩٣].

* * * * *

والتجديد المقبول إسلامياً هو الذي يمارسه المؤهلون للنظر في أصول الإسلام وفروعه، والملمون بما يواجه عَصْرُهم به الإسلام من أفكار وآراء. ذلك لأن العلم الديني تخصص شديد الدقة والعمق لا يحل لأحد أن يقول فيه قولاً إلا إذا كان مؤهلاً لذلك تأهيلاً يقره المجتمع العلمي ويقبله. وفارق مابين الأهلية للقول في العلم الديني وبين الأهلية للقول في تخصصات كثيرة أخرى، هو ضرورة شهادة العلماء لمن يتصدى للقول المتصل بالدين بأنه يصلح لذلك. فلا تكفي هنا الشهادة الجامعية مهما علت، ولا الدرجة الوظيفية مهما تكن رفيعة، فكم من أصحاب هاتين أو إحداهما لا بصر له بالأدلة وترتيبها وكيفية فهمها، فضلاً عن القدرة على الاستنباط منها.

والتجديد المقبول إسلامياً هو الذي يسير على مناهج النظر والاستدلال التي اتبعها المسلمون على امتداد تاريخهم، لا التجديد الذي يتحلل صاحبه من كل قيد، ويرفض كل قديم، ويتبع هوى نفسه، أو أهواء الذين يسترضيهم بقول أو فعل. فذلك ليس من التجديد في شيء، وفاعله مأزور لا مأجور.

وفي المحاولات التي عرفها القرن الماضي (الرابع عشر الهجري = العشرون الميلادي) كانت الأمة تواجه تحدي الاستعمار الغربي الذي بدأت طلائعه منذ بداية القرن السابع عشر، وأحكمت جحافله قبضتها على معظم العالم الإسلامي قبل بداية القرن العشرين. وكانت محاولات التجديد الفكري إما هادفة إلى تقوية روح المقاومة للاستعمار في الأمة، وإما قاصدة إصلاح ما اعوَجَّ من أحوالها الداخلية لتكون أهلاً لهذه المقاومة، ثم لإدارة شؤونها باستقلال حقيقي إذا رحل الاستعمار.

وقد أدت هذه المحاولات مهمتها كأحسن ما يكون الأداء. وانتهى الاستعمار العسكري في السنين العشر بين النصف الأول والنصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ــ على وجه

التغليب والتقريب ــ لتقع أمتنا فريسة الغزو الفكري والثقافي الذي واجهته كتيبة أخرى من الرواد في كل قطر عربي.

كانت المواجهة في هذه المرحلة بين الفكر الإسلامي والفكر المضاد له (الاستعماري الغربي أو الماركسي الشيوعي) معركة سلاحها الكلمة وساحتها القلوب والعقول.

وقد خرج المسلمون منها أوفر حظاً، بما لا يمكن مقارنته، من الذي تولوا الدعوة إلى المنهجين الآخرين: الاستعماري الغربي أو الماركسي الشيوعي.

ولكن هذه الوفرة في الحظ لم تنعم بها الأمة الإسلامية، فقد كان الاستعمار الغربي قد ترك وراءه قبل رحيله رأس الحربة الكامنة في قلب الجسد الإسلامي: الكيان الصهيوني (إسرائيل) ولم تمض عقود أربعة على رحيل الجيوش الاستعمارية حتى كانت قد عادت بدعوة غير كريمة من العدوان البعثي العراقي على الكويت في صيف ١٩٩٠، ثم توالى وصولها، بأعداد غير مسبوقة حتى في عهد الاستعمار العسكري المباشر، بسبب حرب العراق التي سقط فيها نظام صدام حسين، ثم بسبب الاحتلال المستمر منذ عام ٢٠٠٣ حتى الآن لهذا البلد العربي المسكين الذي (خرج من نقرة ليقع في حفرة!).

* * * * *

التحدي الحقيقي الأكبر الذي يواجهه الفكر الإسلامي اليوم، إذن، هو تحدي التعامل مع الغرب الذي أصبحت تقوده الولايات المتحدة الأمريكية وتمثله في المنطقة العربية جيوشها وإسرائيل.

وهو تحدٍ له شعبتان؛ شعبة سياسية عسكرية، وشعبة ثقافية فكرية. والثانية هي التي تهما هنا وتعنينا.

ثم التعامل مع الغرب القديم، الذي استعمر بلادنا ثم خرج منها، بعد أن سقطت دعاوى الحريات وحقوق الإنسان واحترام الآخر التي طالما أغرى بها أبناءنا وبناتنا ليعتنقوا قيمه ويدافعوا عن حضارته، وأصبح يجاهر في إعلامه وسياسته بالعداوة الحضارية والدينية للإسلام نفسه لا للدول الإسلامية أو الجماعات.

وقد ترتب على ذلك جرأة غير معهودة في المطالبة بأن تغير الدول الإسلامية مناهج تعليمها، وطرائق تفكيرها، وتعيد النظر فيما تقبله وما لا تقبله من سلوك الناس فيها، ليتلاءم هذا كله مع ما تراه الحضارة الغربية الغالبة صحيحاً، ولتحقق بذلك مقولة نهاية التاريخ (فوكوياما) بعد أن تحققت من خلال غزو أفغانستان والعراق مقولة صراع الحضارات (هانتيجتون)!! وتطالب هذه الحضارة المسلمين بتغيير نظرتهم إلى المرأة، ومعاملتهم للأبناء ونظم حكمهم وإدارتهم

وتجارتهم بحيث لا تبقى لهم خصوصية من أي نوع ويندمجون إلى حد الذوبان في«**النظام العولمي الجديد**»

وهذا التحدي بشُعَبِهِ كافة هو الذي يصح أن نسميه «**تحدي الهوية الإسلامية**». وهو تحد يقتضي تجديد النظر إلى هذه الهوية وتحديد معالمها الثقافية التي هي في كل أمة «سر من أسرارها الملثمة... وهي كذلك في كل جيل من البشر. وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرة لا تحصى، متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كل مجتمع إنساني للإيمان بها أولا عن طريق العقل والقلب، ثم للعمل لها حتى تذوب في بنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم لا يكاد يحس به، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار... وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار الثقافة وقصور هذا الإدراك، منازل تلتبس فيها الأمور وتختلط، ومسالك تضل فيها العقول والأوهام...» [محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار الهلال بالقاهرة، ١٩٩١ ص ٣٩].

وهوية كل قوم تكونها لغتهم، وثقافتهم، ودينهم، وعاداتهم وتقاليدهم، والفنون التي برعوا فيها، وتراثهم المروي شفاهة وكتابة.

ثم يبلورها استقلالهم السياسي، وعطاؤهم الإنساني، وقدرتهم على حفظ حوزتهم والذود عن حياضهم، وحماية حقوقهم في أوطانهم من أن تسلب أو تنتقص وكفاحهم ــ الذي يسجله لهم التاريخ ــ إن سلبت أو تنقصت !

ولا تبقى الهوية على حال واحدة، وهي دائماً في حاجة إلى حراس وقيّمين ومدافعين يردون عنها الغوائل وينمون فيها عناصر التميز والنهوض.

هؤلاء الحراس لا يملكون ترف التسليم بالهزيمة، ولا يجتمعون ليندبوا حظ جيلهم أو أجيال سبقته ولا يبكون محنة نزلت بهم، ولكنهم ينظرون إلى أمام، ويبحثون عن مخرج من ضيقهم وعن فرج من كروبهم، ويتداولون في الأمر الذي ينزل بهم مداولة المخلصين المستشعرين مسؤوليتهم عن الحاضر والمستقبل بقدر استشعارهم واجبهم نحو قيمهم الموروثة وعناصرها المميزة.

ولا يعبر شيء عن موقف الغرب المسيحي الاستعماري من هويتنا الثقافية، محل التحدي الأكبر الذي نواجهه، كما يعبر عنه كلام المستشرق «هانوتو» الذي نشره الأستاذ محمد رشيد رضا في كتابه تاريخ الأستاذ الأمام [جـــ ٢ ص ٤٠١].

يقول هانوتو: «... إن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح [يقصد الانتصارات الاستعمارية على بلاد الإسلام] وعلى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم، ولكن لم يُثبط همتهم شيء. نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يشدون هذه المقاومة، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرياسة... ففي مسألة علاقتنا مع الإسلام

تجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلها صعباً متعذراً...» [نقله الأستاذ الدكتور محمد البهي في فاتحة كتابه: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، الطبعة الخامسة، ١٩٧٠ ص ٣٤]. ويعقب الأستاذ البهي على هذا النقل بقوله: «وبهذا تتضح سياسة الاستعمار في الشرق الإسلامي.. إنها سياسة تقوم على إضعاف المسلمين... في إسلامهم أولاً وبالذات!!».

وأنت تقرأ هذا الكلام، أو تسمعه، وعمره قرن كامل من الزمن، وكأنك تستمع إلى حديث أحد الساسة الأمريكيين أو الأوربيين من المتعصبين المعاصرين.

فكيف تواجه محاولات تجديد الفكر الإسلامي الحاضرة هذه التحديات، أو هذا التحدي بشعبه المتعددة؟

* * * * *

فأما التحدي العسكري السياسي فإن القول فيه هو ما قاله، منذ نحو عشرين سنة، في ندوة شهدتها مدينة الدار البيضاء المغربية، الأستاذ الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، أمين عام رابطة العالم الإسلامي الآن، عندما تعرض لوضع آيات العفو والصفح، وآيات الأمر بالقتال في غير مواضعها عند الاستدلال فقال: «فآيات العفو والحسنى تساق في حينها، وآيات القتال تساق في حينها.

ولا تنوب هذه عن تلك.

ولا تعطل تلك هذه.

فعندما يكون الوقت مشحوناً بنذر العدوان وأسلحته، وبالاستعداد للانقضاض على المسلمين في دولتهم، فهل تجدي المناقشة وحدها، وهل يكون الوقت مناسباً لها، وكيف يُقنع العقل من يصر على المناقشة بالدبابة، وهل من الممكن صد صاروخ يحمل الرجم والموت بمقال لطيف في صحيفة أدبية؟

إنه ــ في هذه الأحوال ــ تعمل آيات القتال والجهاد، وتحرض الأمة تحريضاً غير منقطع على قهرالعدوان.

وعندما يكون الوقت سلاماً ووئاماً، ليس هناك سبب واحد يدعو إلى الغلظة والجفاء مع الناس، أو يدعو إلى استفزازهم، وإيذائهم باللسان، أو بحركة الوجه، وليس هناك سبب واحد يدعو إلى الكف عن العفو، والصفح، والحسنى.

إنه لمن العقم ــ وليس من التجديد ــ نقل ظروف القتال وروحه إلى الظروف الطبيعية للدعوة الإسلامية، فتستخدم الكلمة بطريقة استخدام السيف، أي في جو من التوتر والتربص والكراهية والانتقام يشبه جو الوغى.» [أعمال ندوة تجديد الفكر الإسلامي، الدار البيضاء ٤-٥ شعبان

١٤٠٧هـ = ٣-٤/٤/١٩٨٧، ص ٣٣-٣٤ والكتاب من منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء ١٩٨٩].

ولا شك أنه من العقم، كما يقول الدكتور التركي، أن توضع آيات السماحة واللين في صدر ما تدعى إليه الأمة في وقت الهجمة السياسية والعسكرية عليها.

وأن يلام المجاهدون في سبيل تحرير أوطانهم من المحتل الأجنبي بدعوى تعطيل جهادهم للعمل من أجل السلام.

إن العمل من أجل السلام يقتضي وجود مسوِّغه وتوافر سببه، وليس الغزو والاحتلال وهدم البيوت وتشريد المدنيين البرءاء سبباً ولا مسوغاً للسلام والعمل لأجله، إنما هي أسباب لتطبيق قول الله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] وقوله تعالى: {... وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وهذا جانب يتحمل تبعة القيام به أولو الأمر، وتؤدي واجبها فيه الدول، ولا يجوز للأفراد ممارسته أو التجمع للمساهمة فيه إلا إذا قعدت الدول والحكومات عنه أو عجزت عن أدائه، أو كانت هي نفسها غير قائمة كما يقع في أوقات المحن والفتن التي ليست صورها عنا ببعيد.

وأما الجانب الثقافي من هذا التحدي فإنه مسؤولية العلماء والدعاة والمفكرين والكتاب الذين مهمتهم إيقاظ الأمم من غفواتها وإنهاضها من كبواتها، وبعث عوامل القوة والعزة فيها. وبعض ذلك تاريخ يجب أن يعاد التذكير به، وبعضه أدب ينبغي أن يكتب ويذاع على الناس ويفتَّنُ في توصيله إلى كل بيت وكل شاب وكل فتاة، فإننا لا ندري أي أرض تخصب وأي أرض تجدب!

والأهم من هذين العنصرين هو أوامر الإسلام القرآنية والنبوية التي تمنع هذه الأمة من الاستكانة لعدوها والاستسلام له ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

والفكر الإسلامي الصحيح يفرق بين المقاومة المشروعة للمحتل أو الغازي أو المقاتل، وبين تعمد الاعتداء على المدنيين المسالمين أو إيذائهم أو اختطافهم لطلب الفدية المادية، أو لأي غرض كان، فإن ذلك كله ــ الذي يجري في العراق وأحياناً في غيرها من البلدان ــ لا أساس له من الفهم الإسلامي الصحيح، ودماء هؤلاء وأموالهم وحرياتهم حرمات لا يجوز

المساس بها. وفعل ذلك يسيء إلى المقاومة الصحيحة التي تعنى بمواجهة القوات الأجنبية المحاربة، ويسيء إلى الدين الذي ترتكب هذه الأفعال تحت لافتته وعنوانه وهو منها براء [بيان الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين حول المقاومة في العراق بتاريخ ١٣ من ذي القعدة ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤/١٢/٢٥م وقرارات مجلس أمنائه في اجتماعيه الثاني والثالث في بيروت في ٥-٦ شوال ١٤٢٥ هـ= ١٨-٢٠٠٤/١١/١٩م وفي ٤و٥ من ربيع الثاني ١٤٢٦هـ = ١٢-٢٠٠٥/٥/١٣].

* * * * *

والموقف الذي يعلنه الغرب في مجمله ــ مع استثناءات، لا تخلو منها بلد ولا جماعة، نقدرها ونحترم مواقفها الشجاعة ــ لا يختلف في كثير ولا قليل عما أجمله المستشرق هانوتو، ونقله الأستاذان محمد رشيد رضا ومحمد البهي. وهو موقف عداء ورغبة في الاستئصال لا للمسلمين وإنما للإسلام نفسه.

يتخذ هذا الموقف حجة ــ داحضة ــ من ادعاء أن المسلمين هم الذين هاجموا الحضارة الغربية في عاصمتيها الأمريكيتين: واشنطن ونيويورك فيما عرف بأحداث ٢٠٠١/٩/١١. وهي كلمة باطل يراد بها باطل!

فلم يقدم أحد دليلاً مقبولاً ــ حتى اليوم ــ على قيام ما يسمى بتنظيم القاعدة بارتكاب تلك الجرائم. بل الدليل قائم على اكتوائنا نحن في بلاد الإسلام: المملكة العربية السعودية والأردن ومصر والمغرب ولبنان واليمن وغيرها، بنار شنائع أفعال المنتمين لهذا الفكر المنحرف.

ولو وقف الأمر عند إدانة هؤلاء وفكرهم لكنا والذين يدينوهم في مربع واحد. ولكن الواقع أن الشعوب الإسلامية تهاجم، وصورة المسلم في الكتب المدرسية يساء رسمها وتصويرها، وثقافتنا المستمدة من ديننا مباشرة توصف بأبشع الأوصاف (تعدد الزوجات/ منع التبني/ الأمر بالقتال في سبيل الله/ تحريم الربا والخمر والقمار وهلم جرًّا).

وبلغ السيل الزبى بالصور البذيئة التي نشرت لرسول الله ﷺ في صحيفة دانمركية، ثم في صحيفة نرويجية، وهي القضية التي أولتها منظمة المؤتمر الإسلامي وأمينها العام جل اهتمامها، وشارك في التنبيه إلى خطورتها، ودعوة الدول الإسلامية والعربية إلى اتخاذ موقف بشأنها، الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ورابطة العالم الإسلامي، وبرلمانات عدد من الدول العربية والإسلامية، ومفكروها وكتابها فضلاً عن شعوبها.

وفي الوقت نفسه، الذي نشرت فيه هذه الصور في الدانمرك، عرضت ثم صورت ووزعت على الكافة مسرحية بذيئة سخيفة سمّوها «كنت أعمى والآن أبصرت»، يهين نصها الإسلام ونبيه وكتابه، بل ورب العزة تعالى جدُّه. وحين طولبت الحكومة الدانمركية والصحيفة التي نشرت الصور المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم بالاعتذار كان جوابهما «إننا لم نفعل شيئاً يوجب ذلك»؛ وهو الجواب نفسه الذي أعلنته الكنيسة المصرية الأرثوذكسية عندما طولبت بالاعتذار عن المسرحية السخيفة المسيئة للإسلام والمسلمين.

* * * * *

إن الموقف الذي ما فتئ الفكر الإسلامي يردده، ويبدئ في بيانه ويعيد، في كل مناسبة التقى فيها المسلمون بالمسيحيين غربيين وشرقيين هو أن الله تبارك وتعالى يقول لنا ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. لكن هذه المعاملة تتوقف، وتصبح منهياً عنها حين يقاتلنا غير المسلمين في الدين أو يمارسوا أي نوع من أنواع العدوان علينا ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]. وهذا هو الموقف الذي يجب أن اتخاذه من غير المسلمين في الظرف الراهن. وهذا هو مقتضى الفهم الصحيح للتجديد ومؤداه في ظل استشعار غير المسلمين لهذا الاستعلاء الكاذب الذي يظهرون به الهزء بديننا ونبينا وكتاب ربنا.

فإن إهانة العقيدة والشريعة والنبي والقرآن، والمؤمنين بهذا كله، تقتضي إظهار عدم الموالاة، بل توجب الغضب والعمل الممكن كله للإشعار به. وإذا كانت الحكومات في أوضاع لا تسمح لها كلها بأن تفعل الذي فعله بعضها من سحب السفير الممثل لها من الدانمرك، فإن الشعوب تملك باختياراتها الكثيرة أن تشعر تلك الدولة، أو غيرها ممن يقع في مثل ما وقع فيها، بغضبها ونقمتها واهتمامها بشأن دينها ومقدساته ورموزه.

وفي العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، في الوطن الواحد، لا يجوز أن يجاوز أحد الطرفين حدود الاحترام الواجب للآخر ولدينه ولنبيه ولكتابه. فإن فعل فتأثرت العلاقة بينهما بفعله تأثراً سلبياً فلا يلومن إلا نفسه. وليس له أن يذكِّر المسلمين ــ عندما يعتدى عليهم ــ بما في آية الممتحنة الأولى من الوصية بالبر والقسط، فإن لهذا الأمر موضع وللدفاع عن الدين ورموزه موضع آخر يصنع فيه ما يليق به.

ومناهج التعليم، وطرائق التفكير، وقواعد السلوك الفردية والاجتماعية كلها من ثمار الحضارة التي يتميز بها شعب عن آخر. وهي الثمار التي وصفها محمود شاكر، فيما أسلفت نقله، بأنها «سر من الأسرار». فإذا أريد من الأمة المسلمة ــ دون أمم الأرض كافة ــ أن تتخلى عما اتخذته لنفسها من ذلك، وتغير ما ارتضاه الناس منه لتتلاءم في مظهرها وجوهرها مع ما يدعونه حضارة وعولمة، فإن هذه الدعوة نفسها أكبر داعٍ لحملة مشعل التجديد أن يضيئوه وينيروا به السبيل للاستمساك بقيمنا الخلقية والتربوية والأسرية والسلوكية ليظل لنا من الخصوصية الثقافية والحضارية ما يفرق بيننا وبين غيرنا ويميزنا عن سوانا.

ودعوات التغيير على النحو الذي يرد علينا كل يوم من الغرب لا ترمي إلى إصلاح أحوالنا ولا إلى تحقيق تقدمنا بقدر ما ترمي إلى تحويلنا إلى مسوخ لا تعرف نفسها عندما تنظر في مرآتها، ولا يعرفها الناس حين ينظرون إليها. ومثل هذه الدعوات لا تواجه بفكرة «حوار الحضارات» ولا «بالحوار بين أهل الأديان» ولا«بحوار الثقافات» وإنما تواجه بالجهر بالذي نؤمن به من الحق، وبالاستمساك بالذي يأمرنا به الدين، وبدعوة الناس إلى أن يتفهموه، فإن لم يؤد بهم ذلك إلى الإيمان به فإنه ــ على الأقل ــ سوف يحملهم على احترامه والتسليم بحقه في الحياة.

* * * * *

إن صدام الحضارات لن يمكن إحداها من القضاء على ما سواها إلا حين يقبل الأضعف أن يكون مصيره الفناء.

ونهاية التاريخ لن تكتب بفرض النمط الحضاري الرأسمالي الأمريكي على العالم بالقوة المسلحة. بل إنني أقول إن الحضارات التي يؤمن بها أهلها غير قابلة للفناء أصلاً. وإن التاريخ حركة مداولة بين الناس لا تتوقف ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

بهذا يجب أن يبشر الفكر الإسلامي المعاصر، وفي سبيل إثباته وبسط العلم به بين الناس يجب أن يعمل المفكرون المسلمون؛ وبذلك يتجدد لنا فكر بنَّاء نافع يصدق فيه، إذا قورن بغيره، قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [الرعد: ١٧-١٨].

والحمد لله رب العالمين،